مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعد:

فقد اهتم القرآن الكريم بمسألة الموت، باعتبارها أساساً أصيلاً في الدين، يتعلق بالإيمان باليوم الآخر، والإنسان مهما عاش في هذه الدنيا، فلا بد له من نهاية لينطلق إلى عمره الخالد في الآخرة؛ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[الحجر: ٢٣].

والإنسان في حياته الدنيوية يكدح وينصب، ففريق من الناس يجري في هاوية الشر، وفريق يرتفع إلى مصافِّ الحق والخير، ولا بد من يوم آخر للجزاء وتحقيق العدل الإلهي، فالدنيا دار اختبار وامتحان وابتلاء، قال ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[الملك: ١ ـ ٢].

والموت حق على الجميع، ولا مندوحة عنه، يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠].

ونحن جميعاً نخشى الموت، ولكن بدرجات مختلفة، وإسلامُنا العظيم نزع الخوف من صدورنا، وأبدله سكينة وطمأنينة، بل إن ديننا الحنيف حبب الموتَ إلى الناس، وأضفى عليه لمساتٍ من الروعة والجلال، يقول رسول الله ﷺ: «ما من عبد يموت له عند الله خير، يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد؛ لما يرى من فضل الشهادة؛ فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى».

بل إن الموت ولادة جديدة كما قال سيدنا علي رضي الله عنه: (الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا).

ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك: ٢]، فقدم الموت على الحياة تنبيهاً على أنه يتوصل به إلى الحياة الحقيقية.

ولقد قال الشاعر:

الموتُ بحرٌ موجُه طافحُ ... يغرقُ فيه الرجلُ السائحُ
ما ينفع الإنسانَ في قبره ... إلا التقى والعملُ الصالحُ

لذا ينبغي أخذ الحيطة والحذر، والتهيؤ لذلك اليوم الرهيب بزاد يدفع عذاب القبر، ويحوله إلى روضة من رياض الجنة.

تزود من الدنيا فإنك راحل ... وسارع إلى الخيرات فيمن يسارعُ
فما المالُ والأهلونَ إلا وديعةٌ ... ولا بد يوماً أن تردَّ الودائعُ

ومن الواجب أن نذكر الموت؛ لئلا يركن الإنسان إلى الدنيا الفانية، وينسى الآخرة، فذكرُ الموت يكدِّر اللذاتِ، ويذكر بالمصير؛ لذا حث رسول الله ﷺ كل مؤمن أن يعي مآله، ويذكر منتهاه، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أكثروا من ذكر هادْم اللذات»، ثم إن القبر أول منازل الآخرة، فمن نجا من عذابه، فقد فاز، ومن لم ينجُ، فما بعدَه أشدُّ منه وأعظم.

وفي القبر سؤال الملكين؛ لذا كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول لأصحابه عندما يفرغ من دفن الميت: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت؛ فإنه الآن يسأل».

ولا ننسى ما أشار إليه رسول الله ﷺ من ضغطة القبر وفتنته، وفظاعة العذاب فيه، وسعته على المؤمن، وضيقه على الفاجر، وأحوال الموتى فيه إلى أن تقوم الساعة.

هذا؛ وقد قام الإمام السيوطي بنظم مسائل أحوال القبر وما فيه من فتن ومحن، ثم جاء الشيخ أحمد بن خليل السبكي، فقام بشرح هذه المنظومة شرحاً لطيفاً، لم يخرج فيه عن مَقصِد الكتاب، مع أنه جمع في كتابه هذا معظم ما قيل في مجال الموت وعذاب القبر، واستشهد بالآيات والأحاديث النبوية، والأخبار والآثار بما لا يدع مجالاً للشك في أن عَالَم البرزخ مخيف شديد.

والشارح ـ جزاه الله خيراً ـ جمع فيه فأوعى، ولَمّ شتات المسألة، وضم ما تفرق في بطون الكتب، فكانت موارده غزيرة، ومراجعه كثيرة، ولكن بعضاً من هذه الكتب لم تصل إلينا؛ لذلك صعب عليّ الوصول إلى بعض من هذه الآثار، فاكتفيت بعزوها إلى كتاب الإمام السيوطي «شرح

الصدور بشرح حال الموتى والقبور» الذي هو أصل لمنظومتنا هذه.

وبعد:

فهذا جهد المُقِل، وعمل من بضاعته مزجاة، بل من لا بضاعة عنده أصلاً، ولكن حالي كما قيل:

يـــا لـــكِ مـــن قنبـــرةٍ بمعمـــرِ خلا لك الجوُّ فبيـضي واصـفري
ونقِّـــري مـــا شـــئت أن تنقِّـــري قد رحل الـصياد عنـك فابـشري

وأخيراً أسأل الله ﷻ أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وفي الختام: أسأل الله الإخلاص في العمل، وتجنب الخطأ والزلل، وأن يجعله في ميزان حسناتي، ويجيرني به من فتنة القبر وعذابه.

وكتبه
أبو أسامة
أحمد عبد المعين درويش
في ليلة السبت السادس من رمضان المبارك
من سنة (١٤٢٩)
من هجرة سيد الأنام ـ عليه الصلاة والسلام ـ

❐ ❐ ❐